

مجمع الأمثال

1250 - خَطَابُ يَسِيرٌ فِي خَطَابِ كَبِيرٍ .

قاله قاصير بن سعد اللخمي لجذيمة بن مالك بن نضر الذي يقال له : جذيمة الأبرش وجذيمة الوصاح والعرب تقول للذي به البرص : به وصاح تفاديا من ذكر البرص .

وكان جذيمة مملوك ما على شاطئ الفرات وكانت الزبيراء ملكة الجزيرة وكانت من أهل باجرمى (في هامش الأصل " هكذا في النسخ ولم أعثر بها في القاموس ولا كتاب تقويم البلدان وإنما الذي وجدته فيهما جاجرم وهي بلدة من خراسان بين نيسابور وجرجان وليحرر ") وتتكلم بالعربية وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها فلما استجمع أمرها وانتظم شمل ملكها أحببت أن تغزو جذيمة ثم رأت أن تكتب إليه أنها لم تجد مملوك النساء إلا قبيحا في السماع وضعا في السلطان وأنها لم تجد لملكها موضعا ولا لنفسها كفوًا غيرك فأقبل إلي لأجمع ملكي إلى ملكك وأصل بلادي ببلادك وتقلد أمري مع أمرك تريد بذلك الغدر . فلما أتى كتابها جذيمة وقدم عليه رسلاها استخفها ما دعته إليه ورغب فيما أطمعته فيه فجمع أهل الحجا والرأي من ثقاته وهو يومئذ بقرية من شاطئ الفرات فعرض عليهم ما دعت إليه وعرضت عليه فاجتمع رأيهم على أن يسير إليها فيستولي على ملكها وكان فيهم قاصير وكان أريبا حازما أثيرا عند جذيمة فخالفهم فيما أشاروا به وقال : رأي فاتر وغدر حاضر فذهبت كلمته مثلا ثم قال لجذيمة : الرأي أن تكتب إليها فإن كانت صادقة في قولها فلا تقبل إليك وإلا لم تتمكن من نفسك ولم تقمع في حبالها وقد وترتها وقتلت أباه فلم يوافق جذيمة ما أشار به فقال قاصير : .
إني امرؤ لا يميل العجز تر ويأتي . . . إذا أتت دون شية مرة الودم .
فقال جذيمة : لا ولكنك امرؤ رأيك في الكين لا في الصبح فذهبت كلمته مثلا ودعا جذيمة عمرو بن عدي ابن أخته فاستشاره فشجعه على المسير وقال : إن قومي مع الزباء ولو قد رأوك صاروا معك فأحب جذيمة ما قاله وعصى قاصيرا فقال قاصير : لا يطاع لقاصير أمر فذهبت مثلا [ص 234] واستخلف جذيمة عمرو بن عدي على ملكه وسلطانه وجعل عمرو بن عبد الجن معه على جنوده وخيوله وسار جذيمة في وجوه أصحابه فأخذ على شاطئ الفرات من الجانب الغربي فلما نزل دعا قاصيرا فقال : ما الرأي يا قاصير ؟ فقال قاصير : " بقرية خلافت الرأي فذهبت مثلا قال : وما طانك بالزباء ؟ قال : القول رادف والحزم عثراته تخاف فذهبت مثلا واستقبله رسول الزباء بالهدايا

والألطاف فقال : يا قصير كيف ترى ؟ قال : خَطَبُ يَسِيرٌ فِي خَطَبٍ كَبِيرٍ فَذَهَبَتْ مِثْلًا وَسَتَلَطَّ قَاكَ الْجِيُوشُ فَإِنْ سَارَتْ أَمَامَكَ فَالْمَرْأَةُ صَادِقَةٌ وَإِنْ أَخَذَتْ جَنْبَتِيكَ وَأَحَاطَتْ بِكَ مِنْ خَلْفِكَ فَالْقَوْمُ غَادِرُونَ بِكَ فَارْكَبِ الْعَصَا فَإِنَّهُ لَا يُشَقُّ غُدَّارُهُ فَذَهَبَتْ مِثْلًا وَكَانَتْ الْعَصَا فَرَسًا لَجْدِيمَةً لَا تُجَارَى وَإِنِّي رَاكِبُهَا وَمُسَايِرِكُ عَلَيْهَا فَلَقِيْتَهُ الْخِيُولُ وَالْكَتَائِبُ فَحَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَصَا فَرَكِبَهَا قَصِيرٌ وَنَظَرَ إِلَيْهِ جَدِيمَةٌ عَلَى مَتْنِ الْعَصَا مُوَلِّيًا فَقَالَ : وَيْلُ أُمِّهِ حَزْمًا عَلَى مَتْنِ الْعَصَا فَذَهَبَتْ مِثْلًا وَجَرَتْ بِهِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ ثُمَّ نَفَقَتْ وَقَدْ قَطَعَتْ أَرْضًا بَعِيدَةً فَبَنَى عَلَيْهَا بُرْجًا يُقَالُ لَهُ : بُرْجُ الْعَصَا وَقَالَتِ الْعَرَبُ : خَيْرُ مَا جَاءَتْ بِهِ الْعَصَا فَذَهَبَتْ مِثْلًا وَسَارَ جَدِيمَةٌ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ الْخَيْلُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الزَّبَاءِ فَلَمَّا رَأَتْهُ تَكَشَفَتْ فَإِذَا هِيَ مَصْفُورَةٌ الْإِسْبُ فَقَالَتْ : يَا جَدِيمَةُ أَدَأَبَ عُرُوسَ تَرَى ؟ فَذَهَبَتْ مِثْلًا فَقَالَ جَدِيمَةٌ : بَلَغَ الْمَدَى وَجَفَّ الثَّرَى وَأَمْرٌ غَدْرٌ أَرَى فَذَهَبَتْ مِثْلًا . وَدَعَتْ بِالسَّيْفِ وَالنَّطْعِ ثُمَّ قَالَتْ : إِنْ دَمَاءُ الْمُلُوكِ شَفَاءٌ مِنَ الْكَلْبِ فَأَمَرْتُ بِطَسُّوتٍ مِنْ ذَهَبٍ قَدْ أَعْدَسْتَهُ لِي وَسَقَيْتُهُ الْخَمْرَ حَتَّى سَكِرَ وَأَخَذْتُ الْخَمْرَ مِنْهُ فَأَخَذَهَا فَأَمَرْتُ بِرَاهِشِيَّةٍ فَقُطِعَ وَقَدِّمَتْ إِلَيْهِ الطُّسْتَ وَقَدْ قِيلَ لَهَا : إِنَّ قَطْرَ مِنْ دَمِهِ شَيْءٌ فِي غَيْرِ الطُّسْتِ فَلَمَّا طَلَبَ بَدَمَهُ وَكَانَتْ الْمُلُوكُ لَا تُقْتَلُ بِضَرْبِ الْأَعْنَاقِ إِلَّا فِي الْقِتَالِ تَكْرِمَةً لِلْمَلِكِ فَلَمَّا ضَعَفَ يَدَاهُ سَقَطَتْ فَقَطَّرَ مِنْ دَمِهِ فِي غَيْرِ الطُّسْتِ فَقَالَتْ : لَا تَضِعُوا دَمَ الْمَلِكِ فَقَالَ جَدِيمَةٌ : دَعُوا دَمًا ضِعَهُ أَهْلُهُ فَذَهَبَتْ مِثْلًا فَهَلَاكَ جَدِيمَةٌ وَجَعَلَتْ الزَّبَاءُ دَمَهُ فِي رُبْعَةٍ لَهَا وَخَرَجَ قَصِيرٌ مِنَ الْحَيِّ الَّذِي هَلَكَتْ الْعَصَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حَتَّى قَدَّمَ عَلَى عَمْرٍو بْنِ عَدِيِّ وَهُوَ بِالْحَيْرَةِ فَقَالَ لَهُ قَصِيرٌ : أَثَائِرُ أَنْتَ ؟ قَالَ : بَلِ ثَائِرٌ سَائِرٌ فَذَهَبَتْ مِثْلًا وَوَأْفَقَ قَصِيرُ النَّاسِ وَقَدْ اخْتَلَفُوا فَصَارَتْ طَائِفَةٌ مَعَ عَمْرٍو بْنِ عَدِيِّ اللَّخْمِيِّ وَجَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مَعَ عَمْرٍو بْنِ عَبْدِ الْجِنِّ الْجَرَمِيِّ فَاخْتَلَفَ بَيْنَهُمَا قَصِيرٌ [ص 235] حَتَّى اصْطَلَحَا وَانْقَادَ عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْجِنِّ لِعَمْرٍو بْنِ عَدِيِّ فَقَالَ قَصِيرٌ لِعَمْرٍو بْنِ عَدِيِّ : تَهَيَّأْ وَاسْتَعْدِّ وَلَا تُطْلِسَنَّ دَمَ خَالِكَ قَالَ : وَكَيْفَ لِي بِهَا وَهِيَ أَمْنَعُ مِنْ عُقَابِ الْجَوِّ ؟ فَذَهَبَتْ مِثْلًا وَكَانَتْ الزَّبَاءُ سَأَلَتْ كَاهِنَةً لَهَا عَنْ هَلَاكِهَا فَقَالَتْ : أَرَى هَلَاكَكَ بِسَبَبِ غَلَامٍ مَهِينٍ غَيْرِ أَمِينٍ وَهُوَ عَمْرٍو بْنُ عَدِيِّ وَلَنْ تَمُوتَ بِيَدِهِ وَلَكِنْ حَتَّفَكَ بِيَدِكَ وَمَنْ قَبْلَهُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فَحَذَرَتْ عَمْرًا وَاتَّخَذَتْ لَهَا نَفَقًا مِنْ مَجْلِسِهَا الَّذِي كَلَنْتَ تَجْلِسُ فِيهِ إِلَى حِصْنِ لَهَا فِي دَاخِلِ مَدِينَتِهَا وَقَالَتْ : إِنْ فَجَأَنِي أَمْرٌ دَخَلْتُ النَّفْقَ إِلَى حِصْنِي وَدَعْتُ رَجُلًا مُصَوِّرًا مِنْ أَجْوَودِ أَهْلِ بِلَادِهِ تَصَوِّرًا وَأَحْسَنَهُمْ عَمَلًا فَجَهَّزَتْهُ وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ : سِرُّ حَتَّى تُقَدِّمَ عَلَى عَمْرٍو بْنِ عَدِيِّ مَتَنُورًا فَتَخْلُوا بِحَشَمِهِ وَتَنْضُمُ إِلَيْهِمْ وَتُخَالِطَهُمْ وَتَعْلَمَهُمْ مَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ بِالصُّورِ ثُمَّ أَثْبِتْ لِي عَمْرًا وَبْنَ عَدِيِّ مَعْرِفَةً فَصَوِّرْهُ جَالِسًا وَقَائِمًا وَرَاكِبًا وَمَتَفَضِّلًا وَمَتَسَلِحًا بِهَيْئَتِهِ وَلِبَسَتِهِ وَلَوْنِهِ فَإِذَا أَحْكَمْتَ ذَلِكَ فَأَقْبِلْ إِلَيَّ فَاَنْطَلِقْ الْمَصُورَ حَتَّى قَدَّمَ عَلَى عَمْرٍو بْنِ عَدِيِّ وَصَنَعَ الَّذِي أَمَرْتَهُ بِهِ الزَّبَاءُ وَبَلَغَ

من ذلك ما أوْصَدَتْهُ به ثم رجع إلى الزبياء بِرَعْلَم ما وَجَّهَتْهُ له من الصورة على ما وصفت وأرادت أن تعرف عمرو بن عدي فلا تراه على حال إلا عرفته وحذرتة وعلمت علمه فقال قصير لعمرو بن عدي : اجْدَعْ أَنْفِي واضرب ظَهْرِي ودعني وإياها فقال عمرو : ما أنا بفاعلٍ وما أنت لذلك مُسْتَدْحِقًا عندي فقال قصير : خَلِّ عني إذن وخَلَاكَ ذم فذهبت مثلا فقال له عمرو : فأنت أَبْصَرُ فجدع قصير أنفه وأثر آثارا بطهره فقالت العرب : لِمَكَرٍ ما جدع قصير أنفه وفي ذلك يقول المثلث : .

وفي طَلَبِ الأَوْتَارِ ما حَزَّ أَنْفَهُ ... قَصِير ورَام الموتَ بالسيف بِيَهَسُ .

ثم خرج قصير كأنه هارب وأظهر أن عمرا فعل ذلك به وأنه زعم أنه مَكَر بخاله جَذيمة وغرَّه من الزبياء فسار قصير حتى قدم على الزبياء فقيل لها : إنَّ قصيرا بالباب فأمرت به فأدخل عليها فإذا أنفه قد جدع وطهره قد ضرب فقالت : ما الذي أرى بك يا قصير ؟ قال : زعم عمرو أنني قد غررت خاله وزينت له المَصِيرَ إليك وغَشَّشته ومالأتُك ففعل بي ما تَرَيَن فأقبلت إليك وعرفتُ أنني لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منك فأكرمته وأصابتُ عنده من الحزم والرأي ما أرادت فلما عرف أنها استرسلت إليه ووثقت به قال : إن لي بالعراق أموالا كثيرة وطرائفَ وثياباَّ وعطراَّ [ص 236] فابعثيني إلى العراق لأحملَ مالي وأحملَ إليك من بُزُوزها وطرائفها وثيابها وطيبها وتُصَيِّبِنَ في ذلك أرباحا عظاما . وبعضَ ما لا غنى بالملوك عنه وكان أكثر ما يطرفها من التمر المصَّرَ فان كان يُعْجِبها فلم يزل يُزَيِّنُ ذلك حتى أذنت له ودفعت إليه أموالا وجَهَّزَتْهُ معه عبيدا فسار قصير بما دفعت إليه حتى قدِمَ العراق وأتى الحيرة متنكرا فدخل على عمرو فأخبره الخبرَ وقال : جهزني بصنوف البز والأمتعة لعل اللّهُ يمكن من الزبياء فتصيبَ ثأرك وتقتلَ عدوك فأعطاه حاجته فرجع بذلك إلى الزبياء فأعجبها ما رأت وسرَّها وازدادت به ثِقَةً وجَهَّزته ثانية فسار حتى قدم على عمرو فجَهَّزه وعاد إليها ثم عاد الثالثة وقال لعمرو : اجْمَعْ لي ثقات أصحابك وهَيِّئْ الغرائر والمُسُوح واحْمِلْ كلَّ رجلين على بعير في غرارتين فإذا دخلوا مدينة الزبياء أقمْتُك على باب نَفَقِها وخرجتِ الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة فمن قاتلهم قتلوه وإن أقبلت الزبياء تُرِيدُ النَفَقَ جَلَّلتها بالسيف ففعل عمرو ذلك وحمل الرجال في الغرائر بالسلاح وسار يَكْمُنُ النهارَ ويسير الليل فلما صار قريبا من مدينتها تقدَّمَ قصير فبشَّرَها وأعلمها بما جاء من المتاع والطرائف وقال لها : آخِرُ البزِّ على القلاُوص فأرسلها مثلا وسألها أن تخرج فتنظر إلى ما جاء به وقال لها : جئْتُ بما صمَّاءَ وصمَّات فذهبت مثلا ثم خرجت الزبياء فأبصرت الإبلَ تكاد قوائمها تَسُوح في الأرض من ثقل أحمالها فقالت : يا قصير .

ما ليلُ جِمَالٍ مَشِيئُها وَنَيْدَا ... أَجَنْدَلًا يَحْمِلَانِ أَمَّ حَدِيدَا .

أَمْ صَرَفَانًا تَارِزًا شَدِيدًا .

فقال قصير في نفسه : بل الرِّجَالُ قُبَيْضًا قُعُودًا .

فدخلت الإبلُ المدينةَ حتى كان آخرها بعيراً مَرَّ على بواب المدينة وكان بيده
مِنْذُخَسَةً فَنَخَسَ بها الغَرَارَةَ فأصابت خَصِرَةَ الرجل الذي فيها فَضَرَطَ فقال البواب
بالرومية بشنب ساقاً يقول : شَرُّهُ في الجُوالِقِ فأرسلها مثلاً فلما توسَّطت الإبل
المدينة أُنِيخَتْ ودل قصير عمراً على باب النفق الذي كانت الزبَاءُ تدخله وأرته إياه
قَبِيلَ ذلك وخرجت الرجالُ من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح وقام عمرو
على باب النفق وأقبلت الزبَاءُ تريد النفق فأبصرت عمراً فعرفته بالصورة التي صُوِّرت
لها فمصَّتْ خاتمها وكان فيه السم وقالت : بِيَدِي لا بِيَدِ ابْنِ عَدِيٍّ فذهبت كلمتها
[ص 237] مثلاً وتلقاها عمرو فجلاَّ لها بالسيف وقتلها وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها
وانكفأ راجعاً إلى العراق .

وفي بعض الروايات مكان قولها أدأب عروس ترى " أَشْوَارَ عَرُوسٍ ترى ؟ " فقال جذيمة
" أرى دأب فاجرة عَدُورٍ بظَرَاءِ تَفْلَةٍ " قالت : لا مِنْ عَدَمِ مَوَاسٍ ولا من قلة أَوَاسٍ
ولكن شيمة من أناس . فذهبت مثلاً